سِجْنُ العُمْر

محمد سعد زغلول سالم

الخميس ١٠ يوليو ١٩٧٥

ولم يكُنْ عقلُه يكُفُ عن الإستغراق فى تأمُّلاته وتفسيراته لأفكاره ومشاعره التى يحيا فيها منذُ ذلك الحين وإلى الآن مثلَ سجينٍ بغير ذَنْب وبغير قضية وبغير حُكم .. فى سِجْنٍ بلا مكانْ وبلا زمانْ وبلا نهاية إلى أن تحينَ النهاية ، هكذا كان يَرَى حياةَ الإنسان فى هذا الوجود الغريب .. سجيناً لقدَرِه وأسيراً لمَصيره وعَبْداً لطبيعَته التى خُلِقَ بها ولا يستطيعُ منها فِكاكاً ، فهذا الكونُ الشاسِعْ الرَحْب الذى لا يستطيعُ العقلُ أن يتصوَّر حدودَه وأبْعادَه لم يكُنْ غيرَ سجْنٍ ضيقٍ خانقْ يُطْبِق على رُوحِه بكلِّ معالم الجمال والجماد فيه .. هذه السماء الصافية التى تُحيطُ به من كلِّ جانب وهى قادرة فى أىِّ لحظة على أن تمنعَ عنه نسيمَ الحياة .. هذه الأرضُ الطيِّبة التى تحمِلُه فوقَ أديمها وهى تنتظر إنقضاءَ أَجَله لكى تُغَيِّبَه إلى غير رِجْعَةٍ فى ثَراها .. هذه الشمْس الدافئة التى لا تكُفَّ عن الشروق كلَّ صباح وعن الغروب كلَّ مساء فقط لتمْنَحَه النورَ والحياة إلى أن تحِينَ نهاية هذه الحياة التى تمْنَحْه إياها معَ بداية كلِّ يومٍ جديد .. هذا القمرُ الصغير الذى لا يتوقَّف عن البزوغ والأفول كلَّ مساء بغير توقُّف أو إنقطاع ليؤجِّجَ حَسْرَته ولوعته على شقوة وتعاسة المصير .. هذه النجومُ الداوِيَةْ التى تتناثرُ بغير إنتظام فى أرْجاءِ الكون السحيق وهىَ تترقَّب مَجىءَ النهاية لتتهاوَى وتتَداعَى وتفْتِك بكلِّ ما فى هذا الوجود الساحر الرائع الفاتن البديع من أشياءٍ وكائنات .. هذه العنادِبُ المُغَرِّدَة بين الخمائل فى وداعَةٍ وحُبُور وهذه الفراشاتُ الحائِمَة صَوْبَ حَتْفِها حولَ الضياء .. هذه البراعِم الناعِسَة فى أحضان الفجْر الهادىء الرقيق وهذه الزهورُ المتلهِّفة لمقدم الربيع .. هذه الأنهارُ والبُحَيْرات وهذه الينابيعُ والغدران وهذه الأنداءُ والأمطار التى تمنحُ الحياةَ للبشر والحقول والحيوانات والطيور والصحارى والمُروج ولكلِّ ما فى الحياة من جمادٍ وأحياء ، هذا الوجودُ الذى كان يتأمَّلهُ مَذهولاً مَأخوذاً مَسْحوراً بمعالمه ومعانيه لم يكُنْ يراه غيرَ سجنٍ مُرَوِّع رهيبٍ مُخيف يجثمُ على عقله برمُوزه وإيحاءاتِه التى لا يفهَمُ كنْهَها والتى تبعَثُ فى نفسه الرُعْبَ والخوفَ والرَهْبَة من كلِّ ما يراهُ ويشْهَدُه منها فى كلِّ لحظةٍ يسْتَغْرِقُه التفكيرُ فيها والإحساس بها والإدراك لها .. هذا الزمن الذى يَمْضَى فى طريقِه خلاله ومن حوله بغير أن يعْبأَ به أو يلتفِتْ إليه وهو يتْبعُه إلى حيثُ لا يدرى دونَ أن يستطيعَ رَفْضاً أو إعتراضاً رغمَ أنه خُلِقَ من أجله لأنه لم يكن لَيوجَد لولا إدراكه له .. وهذا العُمْرُ الذى لا يستطيع جَسَده فكاكاً أو مهْرباً من بذور الفناء التى يبذُرُها فى أعماقه ويغرِس نبَتاتِها فى كلِّ خليةٍ من كيانه فى كلِّ لحظة تنقضى منه وهو يتبعُ الزمنَ فى مسيره صوبَ النهاية التى يبدو أنه ما مِنْ أملٍ فى تأجيلها أو فى الخلاص منها .. وهذا الغَيْبُ الغامض الذى يُحَدِّد كلَّ ما يفعل وكلَّ ما يلْقَى وكلَّ ما يحدث فى حياته منذ مَبْدئها وحتى مُنتهاها وهو لا يستطيع أن يراه أو يعرفه أو يلْقاه أو يتنبَّأ بما يُخبِّئه له فى جُعْبَته من أحداث أو أقدار أو مصير.

